ملف بحثي

سُلطة الفصاحة والنحو

عبدالجبار الرفاعي محمد همام

هلال محمد الجهاد

مركز أفكار للدراسات والأبحاث
Afkaar Center for Studies and Research

ALL RESERVED©2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020

المحتويات

- تقديم (3)
- عبدالجبار الرفاعي

سلطة الفصاحة والنحو (4)

- عبدالجبار الرفاعي

سلطة الفصاحة والنحو: إضافات وتوضيحات على المقالة السابقة (11)

- محمد همام

في نقد سلطة اللغة على العقل، تفاعلا مع مقالة الدكتور عبد الجبار الرفاعي: سلطة الفصاحة والنحو (18)

- هلال محمد الجهاد
- العربية أم العرب؟ مجتمع المعرفة والفرص الضائعة: تفاعلاً مع مقالتي الدكتور عبد الجبار الرفاعي حول (سلطة الفصاحة والنحو) (28)

تقديم

ارتأينا في مركز أفكار للدراسات والأبحاث التفاعل مع الجدل الحاصل مؤخرا في الوسط الثقافي العراقي الذي أحدثته مقالة الدكتور **عبدالجبار الرفاعي** "**سلطة الفصاحة والنحو** "المنشورة في جريدة "الصباح" العراقية يوم الخميس 12 نوفمبر 2020، بتخصيص ملف بحثي يضم المقالة سالفة الذكر، وتليها المقالة التي كتبها الرفاعي تفاعلا مع النقود التي وجهت إليه، والمعنونة بـ"**توضيحات على مقالة سلطة الفصاحة والنحو** "المنشورة بالجريدة نفسها يوم الخميس 19 نوفمبر 2020. كما ضمنا الملف مقالة ثالثة للباحث المغربي الدكتور **محمد همام** والمعنونة بـ" **في نقد سلطة اللغة على العقل** " والتي كتبها بدوره تفاعلا مع المقالة موضوع النقاش، وقد نشرت في صحيفة "**المثقف**" العراقية يوم الأحد 22 نوفمبر 2020، ونشرتها بعد ذلك صحف عراقية أخرى . وأما المقالة الرابعة فهي للباحث العراقي **هلال محمد الجهاد** والمعنونة بـ" **العربية أم العرب؟ مجتمع المعرفة والفرص الضائعة** " والتي تمثل تفاعلا آخر مع مقالتي الرفاعي.

المساهمون في الملف

د عبدالجبار الرفاعي

مفكر وكاتب عراقي، متخصص في الفلسفة الإسلامية. مدير مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد.

د محمد همام

أكاديمي وباحث مغربي، أستاذ اللسانيات القانونية والحجاج القانوني، ونائب عميد كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، أيت ملول، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب.

د جلال محمد الجهاد

أستاذ الأدب العربي في جامعة الحمدانية في العراق.

-1-

سلطة الفصاحة والنحو

د. عبدالجبار الرفاعي

اللغةُ كائنٌ تنطبق عليه القوانينُ التي يخضع لها كلُّ كائن حي، كلُّ كائن حي لا ينمو ويتطور يتحجر ويموت. اللغةُ كائنٌ اجتماعي حقيقتُه التغيّر والتحوّل. اللغةُ الحيّة ذاتُ ديناميكية داخلية، تولد فيها كلماتٌ جديدة وتندثر أخرى، تبعًا لديناميكية التطور الحضاري للمجتمع الناطق بها، لذلك تواصل كلماتُها باستمرار الولادةَ والنموَّ والشيخوخةَ والمرضَ والموت، وتبعًا لذلك تتجدّد أساليبُها البيانية، وطرائقُ التحدث بها.

كلُّ لغة تُنطق وتُكتب بقواعد، لا يمكن إهمالُ تلك القواعد كليا في التحدث والكتابة، قواعدُ النطق في اللغات الحية سهلةُ التلقي منذ الطفولة من البيئة اللغوية، وسهلةُ التعلم والإتقان. قواعدُ اللغة العربية كثيرةٌ دقيقة تفصيلية متشعّبة، تتنوّع فيها اجتهاداتُ البصريين والكوفيين الأوائل ومن تأخر عنهم. قواعدُها صعبةُ الإتقان للمتخصّص، إذ يلبث التلميذُ سنواتٍ عديدة في دراستها ثم تدريسها ولا يتقنها أحيانًا، فكيف بغير المتخصّص الذي لا يخصّص سنواتٍ لتعلّمها، وهم أكثرُ الناطقين بها من أبنائها. هذه مشكلةٌ مزمنة يعيشها الناطقون بالعربية، تدعونا لتيسير قواعد النطق بهذه اللغة.

استبدّت مقولةُ "الفصاحة" و"الإعراب" بالعربية، وتحولت "الفصاحةُ" و"الإعراب" بمرور الزمن إلى سلطةٍ صارمة، أعاقت الديناميكيةَ الذاتية لتحديث اللغة لنفسها، ومنعت اللغويين من تيسير قواعد النطق بها، بالشكل الذي يتمكن معه المتحدّث بها من مراعاتها بسهولة، ويتبادر إليه إعرابُها بعفوية يرثها من بيئته اللغوية، بلا تَعَلَّم وإتْقَان وتخصّص.

مشكلةُ العربية تشبّعها بهالة المقدّس، بوصفها لغةَ القرآن الكريم والنصوص والتراث الديني، واستحواذ المدارسُ الدينية على تعليمها بالتدريج، وأفضى ذلك إلى أن يتولى حمايتَها رجالُ الدين ففرضوا سلطتَهم وسطوتَهم، إلى درجة صارت أيّةُ دعوة لإعادة النظر في قواعدها وأساليبها وتحديثها كأنها عدوانٌ على مقدّس.

يقول علي الطنطاوى: "أصبح النحو علمًا عقيمًا، يدرسه الرجل ويشتغل به سنين طويلة ثم لا يخرج منه إلى شيء من إقامة اللسان والفهم عن العرب. وإنني لأعرف جماعة من الشيوخ، قرؤوا النحو بضعة عشر عامًا، ووقفوا على مذاهبه وأقواله، وعرفوا غوامضه وخفاياه، وأوّلوا فيه وعللوا، وأثبتوا فيه ودللوا، وناقشوا فيه وجادلوا، وذهبوا في التأويل والتعليل كلّ مذهب، ثم لا يفهم أحدهم كلمة من كلام العرب، ولايقيم لسانه في صفحة يقرؤها، أو خطبة يلقيها، أو قصة يرويها. ولم يقتصر هذا العجز على طائفة من الشيوخ المعاصرين ومن قبلهم من العلماء المتأخرين، بل لقد وقع فيه جلة النحويين وأئمتهم منذ العهد الأول"[1].

حضرتُ مناقشةَ دكتوراه قبل عشر سنوات في تخصّص اللغة العربية، كان المناقشون خمسةَ أساتذة يحملون لقبَ أستاذ دكتور باللغة العربية، جلستُ نصفَ ساعة فخرجتُ لكثرة الأخطاء النحوية في نطق بعضهم. عندما خرجتُ رأيتُ أحدَ المؤلفين المحقّقين المعروفين غادر القاعةَ قبلي، كان متذمرًا جدًا لفرط انزعاجه من أحد المناقشين الذي ماتت حروفُ الجرّ في حديثه وتعطلت وظيفتُها على لسانه.

لا يعود ذلك فقط إلى: تقصيرِ المعلمين في تعليمِ اللغة ونحوها، أو إهمالِ وعدمِ جدّية المتعلمين، أو ضعفِ وإخفاقِ المقرّرات الدراسية، بل يعود أيضًا إلى مشاكل بنيوية عميقة في تكوين وتدوين النحو، ومعاجم اللغة، وتسلّطِ الفصحى والنحو، وشحّةِ المراجعات النقدية للتراث المعجمي والنحوي للعربية، وعدمِ الانفتاح على المكاسب العلمية الحديثة في اللغة، ورؤية الآفاق المضيئة للألسنيات ومناهجها وأدواتها ومعطياتها الفائقة الأهمية، المتفاعلة بعمق مع الفلسفة وعلوم الإنسان والمجتمع اليوم.

اعترف بعجزي عن إتقان النحو، مع أني درسته عدةَ سنوات، فمضافًا إلى دراستي للنحو في مراحل الدراسة الابتدائية والمتوسطة والثانوية، درّستُ في الحوزة هذه الكتب: قطر الندى وبلّ الصدى، وشرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، وشيئًا من شرح ابن الناظم لألفية ابن مالك، الذي تتلمذتُ فيه على يد العلامة اللغوي المرحوم رؤوف جمال الدين في الحوزة.

[1] الطنطاوى، علي، فكر ومباحث، ص 13، 1988، مكتبة المنارة، مكة المكرمة.

سرق من عمري تَعَلّمُ الصرف والنحو والإعراب والبلاغة عدة سنوات، تَعَلَّمته على يد شيوخ متمرّسين في تدريسه، ثم دَرَّستُه لمجموعة من التلامذة في مرحلة مبكرة من حياتي، لكني أخفقتُ في إتْقَانِه بدقة، والتخلصِ نهائيًا من أية أخطاء نحوية في الحديث والكتابة، وما زلت حتى اليوم أعود لمحرّرِكي يدقّقَ ما لا أتنبه إليه من أخطاء. وطالما تورطتُ في جدال، غالبًا ما يكون عقيمًا، لأن مَنْ يحرّر نصوصي يرفضُ بشدة استعمالي الجديد للكلمات، الذي لم يتداوله البدوي قبلَ تدوين المعاجم، وكأن اللغةَ وُلدت على لسان العربي الأول مكتملةً مقفلةً، أو مصابةً بعقم أبدي، وكأن توليدَ الاستعمال الجديد للكلمة خطيئة.

كَبَّلت الفصاحةُ والإعرابُ العربيةَ وعطّلتها عن تجديد أساليبها البيانية قرونًا طويلة، إلى أن فرضَ العصرُ الحديث على المتحدّثين والكتّاب التناغمَ مع إيقاعِ التطور الحضاري، والانفتاحَ على التراكمِ المعرفي الواسع في مختلف العلوم البشرية، والإفادةَ من المكاسبِ المهمة في علوم اللغة واللسانيات، وما تتطلبه كلُّ لغةٍ تريد لنفسها مواكبةَ الحياة، وتلبيةَ احتياجات الناطق بها للحضورِ في زمانه وعصره، من الاغتناءِ بنتائج هذه العلوم ومكاسبها وأدواتها ومناهجها.

تمرّدت اللهجاتُ العربية على "الفصاحة" و"الإعراب"، وابتعدت بالتدريج عن العربية الفصيحة، ولم تأسرها قواعدُ النحو، بعد أن اتخذت لنفسِها مساراتٍ تستجيب لاختلاف المجتمعات، وتنوّعِ ثقافاتها، وظروفِ معاشها المتعدّدة، فصار كلُّ بلدٍ يتحدّث لهجَته الخاصة، وما فرضته متطلباتُ التواصل داخل عالَمه الخاص والعالَم من حوله.

اللهجةُ احتلت موقعَ اللغة الأم، قواعدُ اللهجة وأساليبُها البيانية ونظامُها التركيبي والصرفي والصوتي والدلالي لا تتطابق كليًا وأنظمة العربية الفصحى. وتيرةُ تطور اللهجة متسارعةٌ، حتى أن مدينةً مثل بغداد تتبدّل لهجتُها في قرن واحد بشكل كبير، لهجتُها في النصف الأول من القرن العشرين تختلفُ عن لهجتها في نهاية نصفه الثاني. اللهجةُ محكومةٌ بتحولات الأجيال، والتغيير الاجتماعي، ومختلف الأحوال السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية. كأن اللهجةَ تولدُ بولادة كل جيل ولادةً جديدة. إلا أن العربية الفصحى تظلُّ هي القاسم الحضاري المشترَك الذي يجب أن يحميه كلُّ الناطقين بهذه اللغة. ممانعة حرس الفصحى

ورفضهم لتحديثها تفقدها وظيفتَها الحضارية العظمي بالتدريج. كلما امتد الزمنُ بها ولبثت عصيةً على أية محاولة لتيسير نحوها وأساليب التحدث بها وكتابتها، يبتعدُ أكثرُ الناطقين بالعربية منها ويشتد عجزهم عن التحدث والكتابة بها.

يقول توشيهيكو إيزوتسو: "كلُّ واحدة من كلماتنا تمثّل منظورًا خاصًا نرى فيه العالَم. وما يسمّى مفهومًا ليس سوى بلورة لمثل هذا المنظور الذّاتي". وخصّص محمد عابد الجابري الفصلَ الرابع من كتابه "تكوين العقل العربي" لدراسة رؤية الأعرابي للعالَم، وكيف كان: "الأعرابي صانع العالم العربي"، يقول الجابري: "لقد جمعت اللغة العربية من البدو العرب الذين كانوا يعيشون زمنا ممتدًا كامتداد الصحراء، زمن التكرار والرتابة، ومكانًا بل فضاءً فارغًا هادئًا، كل شيء فيه صورة حسية، بصرية أو سمعية. هذا العالَم هو كل ما تنقله اللغة العربية إلى أصحابها، اليوم وقبل اليوم، وسيظل هو مادامت اللغة خاضعة لمقاييس عصر التدوين... أن يظل الذهن العربي مشدودًا، إلى اليوم، إلى ذلك العالم الحسي اللا تاريخي الذي شيده عصر التدوين، اعتمادًا على أدنى درجات الحضارة التاريخية عبر التاريخ، حضارة البدو الرحل التي اتخذت كأصل ففرضت على العقل العربي طريقة معينة في الحكم على الأشياء، قوامها: الحكم على الجديد بما يراه القديم"[2].

لبثت مجامعُ اللغة العربية تضيّعُ جهودَها في محاولاتٍ عقيمة، عندما انشغلت عشرات السنين بالعملِ على بعث ألفاظ متخشّبة مندثرة، بذريعة فصاحتها باستعمال البدوي لها قبل عصرِ التدوين، على الرغم من أن تلك الألفاظَ "الفصيحة" عكست رؤيةَ البدوي الضيقةَ للعالَم، وكانت مرآةً لمفاهيمه المحدودة، وأمّيته الثقافية، وأن العملَ على إحيائها وتوظيفها مجدّدًا كان مصيرُه الفشل، لأنه ينتهي إلى إرغامِ تفكير الناطق بالعربية على الارتهان لرؤية البدوي للعالَم، وتبنّي قيمه، والاحتفاءِ بمفاهيمه المحنّطة، وهي رؤيةٌ وقيم ومفاهيم يراد لها أن تأسرَ مصيرَ العربي اليوم، وتتنكّر لها اللهجاتُ العربيةُ المتداوَلة في الحياة اليومية على تعدّدها وتباعدها المتواصل بين مشرق الناطقين بها ومغربهم.كأن مجامعَ اللغة العربية تريد أن تشطب على كلِّ التطور الحضاري ومكاسبِ العصور الحديثة بالارتهانِ لرؤية العالَم القديم والانخراطِ في مشاغله.

[2] الجابري، محمد عابد، تكوين العقل العربي، ص 78، ط13، 2017، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

في مرحلةٍ لاحقة من نشأة النحو تشكلت قواعدُ اللغة العربية في ضوء قوالب المنطق الأرسطي، مثلما وقع غيرُها من علوم اللغة في هذه القوالب، وتحوّل هذا المنطقُ إلى بنيةٍ للتفكير في علم الكلام، وأصول الفقه، والفقه، وغيرها من علوم الدين. كلُّ هذه العلوم أضحت يتحكّم بها المنطقُ الأرسطي، تفكّر في إطار قواعده، وتستدلّ بأساليب محاججاته، وتبرهن بطرائق استدلاله، وتتحدّث في سياق معجمه ومصطلحاته. انتهت علومُ الدين واللغة إلى أن تقع في مدارات مسدودة يبدأ التفكيرُ فيها من حيث انتهى وينتهي من حيث بدأ، وباتت مكبّلةً تعجز عن الإفلاتِ من هذه الحدود الصارمة، والبحثِ عن أفق بديل لمنطق التفكير وآفاقه. رسّخ هذا المنطقُ بنيةً للتفكير متجذّرةً يصعب جدًا التحرّرُ منها، وكأننا نرى طفلًا ظلّ يتغذّى بالغذاء نفسِه الذي تلقاه في مرحلة الرضاعة، لم يغادره في فتوته ومراهقته وشبابه حتى شيخوخته، على الرغم من أن متطلباتِ الغذاء لكلِّ مرحلة من العمر تحتاج إلى عناصر أساسية لبناء الجسد ونموّه وتطوره.

أدعو لتيسير قواعد العربية وليس للاستغناء عنها، تيسيرها بالشكل الذي يجعل تلقي أبناء اللغة لها من أمهاتهم وآبائهم وعوائلهم وبيئاتهم عفويًا تلقائيًا، كما يتلقون كلمات ومعجم النطق بها. وأدعو لتحديث معجمها ليتسع لاستيعاب ما يستجدّ من مصطلحات وتسميات مكاسب العلوم والمعارف والتكنولوجيا.

هذا ليس رأيي فقط، كي يقال إنه نشاز، هذا رأيٌ اشتهر عن جماعة من علماء اللغة والنحو المعاصرين، ممن كانوا يفكرون بذلك، وكتبوا فيه. هناك مجموعةُ علماء عملوا على تيسير النطق بالعربية غير أن دعوتَهم أُجهضت مبكرًا، لسطوة الفصاحة والنحو وتسلّطهما الشديد، مثلما أُجهضت كلُّ دعوات الإصلاح في بلادنا. أصحابُ هذا الموقف هم جماعةُ الميسرين الذين دعوا لتيسير النطق باللغة وقواعدها من أبرز علماء اللغة والنحو، فمثلًا خصّص عضوُ مجمع اللغة العربية ابراهيم أنيس فصلًا بعنوان: "قصة الإعراب" في كتابه: "من أسرار اللغة"، كشف فيه كيفيةِ نشأة الإعراب، وكيف صار نظامًا صارمًا للسان العربي، واتخذ قيمةً عليا استأثر بها النحاةُ فصنعت لهم مكانةً استثنائية، ترسّخت من خلالها سلطتُهم المعرفية على العربية. يروي أنيس هذه القصةَ بقوله: "ما أروعها قصة! لقد استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية، ثم حيكت. تم نسجها حياكة

محكمة في أواخر القرن الأول الهجري، أو أوائل الثاني على يد قوم من صنّاع الكلام، نشأوا وعاشوا معظم حياتهم في البيئة العراقية. ثم لم يكد ينتهي القرن الثاني الهجري حتى أصبح الإعرابُ حصنًا منيعًا، امتنع حتى على الكتّاب والخطباء والشعراء من فصحاء العربية، وشق اقتحامه إلا على قوم سُمُّوا فيما بعد بالنحاة... ومع أن الإعراب ليس في حقيقته إلا ناحية متواضعة من نواحي اللغة، فقد ملك على الناس شعورهم، وعدوه مظهر ثقافتهم ومهارتهم الكلامية، يتنافسون في إتْقَانه، ويخضعون أقوال الأدباء لميزانه، فليس الفصيح في نظرهم إلا من راعى قواعده، وأخذ نفسه باتباع أصوله ونظامه... وصارت قواعده في آخر الأمر معقدة شديدة التعقيد، وقد تفنى الأعمار دون الإحاطة بها، أو السيطرة عليها سيطرة تامة. وصرنا الآن ننفر منها لما اشتملت عليه من تعسف وتكلف، بغّضَ إلى الكثيرين دراسة اللغة العربية في العصر الحديث"[3].

البعضُ يعتاش على سلطة الفصاحة والنحو، والدعوةُ للتجديد تناهضها دائمًا شبكاتُ مصالح متجذّرة متشعّبة معقّدة، وطالما خرجت من فضاءِ النقاش العلمي إلى ضجيجِ الجدل البزنطي.

[3] أنيس، ابراهيم، من أسرار العربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 4، 1972، ص 198 – 199.

-2-

سلطة الفصاحة والنحو

إضافات وتوضيحات على المقالة السابقة

د. عبدالجبار الرفاعي

بعد نشر مقالتي: "سلطة الفصاحة والنحو" في صحيفة الصباح ببغداد، الصادرة في 12 تشرين ثاني 2020، تداولتها لاحقا عدةُ صحف ومجاميعُ في وسائل التواصل. واختلفت المواقفُ حيالها، ففيما أثنى عليها وتحمّس لها بعضُ الخبراء والقّراء، امتعض منها آخرون، وزعموا أنها تتنكر لضرورة وجود قواعد للغة العربية، واتهم غيرُهم كاتَبها بـكلمات غير مهذبة. أشكر كلَّ قرّاء المقالة، سواء من كان معها أو ضدّها، وأتمنى على بعض القرّاء ألا يلجأ للهجاء والكلمات المنفعلة، لأن النقدَ العلمي يهتمّ بتمحيص الآراء قبل أن يتهم كاتبَها.

لم أنكر ضرورةَ وجود قواعد للعربية، واحدةٌ من البداهات المعروفة أن كلَّ لغة تُنطق وتُكتب بقواعد لاسيما العربية، ولا يصح إهمالُ تلك القواعد كليًا في التحدّث والكتابة.

المقالة السابقة ترى أن قواعدَ النطق في اللغات الحية سهلةُ التلقي منذ الطفولة، يستقيها الإنسانُ من بيئته اللغوية، ويتيسر له تعلّمُها وإتقانُها. قواعدُ العربية كثيرةٌ دقيقة تفصيلية متشعّبة، متعارضةٌ أحيانًا، تتنوّع فيها اجتهاداتُ البصريين والكوفيين الأوائل، ومن تأخر عنهم. هذه القواعد صعبةُ الإتقان لمن يتخصّص بها، إذ يلبث التلميذُ سنواتٍ عديدة في دراستها، غير أنه ربما لا يتقنها، فكيف بغير المتخصّص الذي لا يتسع عمرُه لإنفاق سنوات في تعلّمها، وهم أكثرُ الناطقين بالعربية من أبنائها.

اللغةُ بدلا من أن تكون أداةً مرنة طيّعة ديناميكية في التواصل الاجتماعي، تحولت الى قيدٍ يقيّد العقل، ينهك التفكير، يرهق النطق، وتتعسّر به الكتابة. في العربية نحن نتحدّث بلغة هي اللهجة السائدة في مجتمعنا، ومع الناطقين باللهجات العربية الأخرى نتحدّث بلغة، ونفكر بلغة، ونكتب بلغة. وربما نرى من يتقن عدةَ لغات لا تكون أحيانًا مصدرَ ثراء وخصوبة

لديه، بل تشتبك هذه اللغاتُ في بعض الحالات مع مجموعة العربيات: لهجة يُنطق بها، لغة يُكتب بها، لغة يُفكَّر بها.

أعرف الفارسية، وترجمتُ عدةَ كتب منها إلى العربية، لم أجد فجوةً واسعة بين الشفاهي والمكتوب، المسافةُ فيها ليست شاسعةً بين لغة الكتابة ولغة المحادثة كما العربية، حتى أن مجموعةَ مؤلفات علي شريعتي مثلًا أغلبُها محاضرات شفاهية، كُتبت على الورق، ونُشرَت بتحرير بسيط، هذا ما رأيتُه في بعض مصورات تحريرها. وهكذا الكتابات المنشورة لأكثر المؤلفين المعروفين اليوم بالفارسية. تلك مشكلةٌ يواجهها الناطقون بالعربية تدعونا لتيسيرِ قواعد النطق بهها، وإثراءِ معجمها، وتضييقِ الفجوة بين الشفاهي والمكتوب. أدعو لتيسير القواعد، وليس الاستغناء عنها كلّها، أعني تيسيرَها بالشكل الذي يجعل تلقي أبنائها لقواعدها من عوائلهم وبيئاتهم عفويًا تلقائيًا، كما يتلقون كلمات ومعجم النطق بها. لا أدعو لاعتماد اللهجات المحلية بديلًا عن الفصحى. أدعو لتحديث معجمها ليتسع لاستيعاب ما يستجدّ من مصطلحات مكاسب العلوم والمعارف والتكنولوجيا. وهذا ما نراه في قواعد ومعجم اللغات الحية، مثل: الانجليزية، والفرنسية، والإسبانية، والفارسية، وغيرها.

هذا ليس رأيي فقط، هذا رأيٌ اشتهر عن جماعة من علماء اللغة والنحو المتقدمين والمتأخرين، فمثلًا ينصح الجاحظ ت 255 هـ المعلّم بقوله: "وأما النحو، فلا تُشغِل قلبَه[4] منه إلا بِقَدْر ما يؤدِّيه إلى السلامة من فاحش اللَّحْن، ومن مقدار جهل العوامِّ في كتاب إن كتبه، وشِعْر إن أنشدَه، وشيء إن وصَفَه، وما زاد على ذلك فهو مشغلةٌ عمَّا هو أَولى به، ومذهل عمَّا هو أراد عليه منه، ومن روايات المثل والمشاهدة، والخبر الصادق، والتعبير البارع"[5]. ويكشف الجاحظ عن الدوافع غير المعلنة لبعض النحاة الأوائل، إذ يقول: "قلت لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنّحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلّها، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدّم بعض العويص و تؤخّر بعض المفهوم؟! قال: أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه، قلّت حاجاتهم إليّ فيها، وإنّما كانت غايتي المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم، لتدعوهم

[4] يقصد قلب الصبي.
[5] الجاحظ، الرسائل، 1: 171.

حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا، وإنّما قد كسبت في هذا التدبير، إذ كنت إلى التكسّب ذهبت"[6].

وكان ابنُ مضاء القرطبي ت 592 هـ ألف كتابًا بعنوان: "الرد على النحاة" دعا فيه إلى إلغاء نظرية العامل في النحو، بدافع تيسير تعليمه. كما يصرّح بذلك في مقدمة كتابه بقوله: (قصدي في هذا الكتاب أن احذف من النحو ما يستغني النحويُّ عنه، وأنبه على ما اجمعوا على الخطأ فيه. فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظي وبعامل معنوي، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم في قولنا "ضرب زيدٌ عمرًا" أن الرفع الذي في زيد والنصب الذي في عمرو إنما أحدثه ضرب)[7].

وقد روى السيوطي: "أن الكسائي قد مات وهو لا يعرف حد نعم وبئس، وأن المفتوحة، والحكاية. وأن الخليل لم يكن يحسن النداء. وأن سيبويه لم يكن يدري حد التعجب. وأن رجلاً قال لابن خالويه: أريد أن أتعلَّم من العربية ما أُقيم به لساني، فأجابه ابن خالويه على البديهة: أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو، وما تعلَّمْتُ ما أُقيمُ به لساني!"[8].

وأشار علي الطنطاوى إلى أن ما: (زاد النحو تعقيدًا وإبهامًا وبعدًا عن الغاية التي وضع من أجلها، ما صنعه الرماني من مزج النحو بالمنطق وحشوه به، حتى ما يقدر من بعده على تجريده منه، وحتى قال أبو علي الفارسي وهو معاصر له: إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء، وإن كان ما نقوله نحن، فليس معه منه شيء. فخرج النحو بذلك عن الجادَّة، ولم يعد واسطة لفهم كلام العرب واتباع سبيلهم في القول، بل غدا علماً مستقلاً معقداً مضطرباً لا تكاد تثبت فيه مسألة. ورضي النحاة عن هذا التعقيد ووجدوا فيه تجارة وكسباً، حتى أن السيرافي لما ألف كتابه الإقناع "الذي أتمّه ولدُه يوسف" وعرض فيه النحو على أوضح شكل وأجمل ترتيب، فأصبح مفهومًا سهلًا، لا يحتاج إلى مفسر، ولا يقصر عن إدراكه أحد، حتى قالوا فيه: وضع أبو سعيد النحو على المزابل بكتابه الإقناع. ولما ألَّفه

---

[6] الجاحظ، الحيوان، ص 62-63.

[7] ابن مضاء القرطبي، كتاب الرد على النحاة، نشره وحققه: د. شوقي ضيف، ص 85-86، 1947، دار الفكر العربي، القاهرة.

[8] السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، 1964، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

قاومه النُحَاة، وما زالوا به حتى قضوا عليه، فلم يعرف له ذكر، ولم نعرف أنه بقي منه بقية! وزاد النحو فساداً على هذا الفساد هذا الخلاف بين المذهبين "أو المدرستين على التعبير الجديد" المذهب الكوفي، والمذهب البصري، وما جرَّه هذا الخلاف من الهجوم على الحق، والتدليل على الباطل، والبناء على الشاذ، قصد الغلبة وابتغاء الظفر، كما وقع في المناظرة المشهورة بين الكسائي وسيبويه"[9].

ودعا جماعةٌ من علماء اللغة والنحو في العصر الحديث إلى تيسير النحو وتحديث اللغة، منهم: الأب أنستاس ماري الكرملي ت 1947 م، الذي ألف في هذا الموضوع: "أغلاط اللغويين الأقدمين"، صدر ببغداد سنة 1932م، وكتاب: "نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها"، صدر في القاهرة سنة 1938م.

ويشرح أمين الخولي "صعوباتنا اللغوية اليوم" فيقول: "ان أهم ما يعسر النحو على المعلمين والمتعلمين ثلاثة أشياء: الأول: فلسفة حملت القدماء على أن يفترضوا ويعللوا، ويسرفوا في الافتراض والتعليل. والثاني: اسراف في القواعد، نشأ عنه اسراف في الاصطلاحات. والثالث: إمعان في التعمق العلمي، باعد بين النحو وبين الأدب... إننا نعيش بلغة غير معربة ولا واسعة، حين نتعلم لغة معربة، وافرة الحظ من الاعراب، واسعة الآفاق مع ذلك، فكأننا بهذا نتعلم لغة أجنبية وصعبة، إذ أننا نعيش ونتعامل ونتفنن، بل يفكر مثقفونا بهذه العامية، ثم ها هي العامية تتابع زحفها الجرئ على مجال تلك الفصحى... إن هذه الفصحى الواسعة المعربة، مع ثقل اعرابها علينا، لا يسهل ضبطه بقاعدة، بل يسوده الاستثناء، فتتعدد قواعده وتتضارب... إن هذه الفصحى، فيما وراء اعرابها المضطرب، وسعتها، وانتشار قواعدها، باختلاف الكلمات، تعود فلا تستقر على حكم وقاعدة في الكلمة الواحدة، أو التعبير الواحد، فيجوز فيه النصب والجر، أو يجوز فيه الرفع والنصب والجر جميعا، وهكذا يتمادى الاضطراب، ويزداد التزعزع في الكلمات المختلفة، ثم في الكلمة، أو التعبير الواحد بنفسه، وهذا هو اضطراب القواعد"[10].

---

[9] الطنطاوى، علي، فكر ومباحث، ص 17، 1988، مكتبة المنارة، مكة المكرمة.
[10] الخولي، أمين، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ص 41-43، 1961م، دار المعرفة، القاهرة.

هناك مجموعة علماء لغة ونحو آخرون كتبوا نقدًا لقواعد النحو والإعراب، ودعوا إلى تيسيره، مثل: ابراهيم مصطفى الذي ألف "إحياء النحو"، صدر سنة ١٩٣٧، ويلتقي في كتابه هذا مع ابن مضاء القرطبي بالدعوة إلى إلغاء نظرية العامل في النحو، فيقول: "وتخليص النحو من هذه النظرية وسلطانها هو عندي خير كثير وغاية تُقصد، ومطلب يسعى إليه، ورشاد يسير بالنحو في طريقه الصحيحة، بعدما انحرف عنها آمادا، وكاد يصد الناس عن معرفة العربية وذوق ما فيها من قوة على الأداء ومزية في التصوير".

وقد ألف شاكر الجودي كتاب: "تشذيب منهج النحو"، سنة 1949، وأحمد عبدالستار الجواري: "نحو التسير"، سنة 1962م، ومهدي المخزومي: "في النحو العربي: نقد وتوجيه"، سنة 1964م. كما صدرت لعلماء لغة ونحو غيرهم عدةُ مؤلفات مماثلة تدعو للتيسير، غير أن دعوتهم أُجهضت مبكرًا، لسطوة الفصاحة والنحو وتسلّطهما الشديد، مثلما أُجهضت كلُّ دعوات الإصلاح في بلادنا.

لم يكن علي الوردي مسكونًا بـ "الفصاحة"، كما اشتهرَت عند اللغويين منذ عصر التدوين، ولم يكترث بالنحو وقواعده كثيرًا في كتاباته، بل كان يسخرُ من تشديد أهل اللغة على ذلك. لم يعبأ الوردي بكلِّ ذلك الاهتمام المبالَغ فيه بالفصاحة والنحو، بل كان يهمّه إيصالُ أفكاره بأية وسيلة، مهما كانت طريقةُ إبلاغه عنها، لذلك ظلّ يحذِّر النقادَ المتحذلقين من تسقّط الأخطاء النحوية في كتاباته، وينفر ممن يلاحقون الإعرابَ في أعماله، ويتهكّمون على ما يحسبونه عثراتٍ إعرابيةً في كتاباته. بلا تردّد أو حذر أو خجل يعترف علي الوردي بكثرةِ الأخطاء النحوية في كتاباته، ويعلن بأنه لا يعتذر من ذلك، إذ يقول في سياق بيان موقفه من النحو: "أودُ أن أنتهزَ هذه المناسبة لأُشير إلى أمر ربما لاحظه القاريء في جميع كتبي، هو كثرة الأخطاء النحوية فيها. وهذا أمرٌ أعترفُ به ولا أعتذر عنه. لا أكتمُ القاريء أني اعتبر النحو بلاءً أبتليت به الأمةُ العربية. وأنا على يقين أن الأمةَ العربية في مسيرتها الحضارية نحو المستقبل سوف يأتي عليها يومٌ تجد نفسها مضطرة إلى إلغاء النحو كلّه من مناهج مدارسها، أو إلغاء الجزء الأكبر منه على الأقل... مشكلة النحو العربي أنه ذو قواعد كثيرة ومعقدة، دون أن تكون له أية فائدة عملية، ولم نحصل من النحو إلا على أفراد من الناس

دأبهم البحث عن الأخطاء النحوية في خطب الناس وكتاباتهم لينتقدوا أصحابها بها، ويشنوا عليهم الهجمات الشعواء"[11].

أحترم جهودَ الميسرين للغة والنحو، وأقدّر عقلانيتَهم النقدية. ليست كلُّ رؤية جديدة صحيحة، ولا كلّ رؤية قديمة خاطئة، المهم أن تكون الرؤيةُ علمية، متحرّرةً من وصاية الماضي على الحاضر ومن وصاية الحاضر على الماضي. لا تتأسّس هذه الرؤيةُ إلا على فهمٍ وتمحيص للتراث، واستيعابٍ نقدي للمعارف الحديثة، ونقدٍ موضوعي للواقع.

[11] الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، بيروت، دار الراشد، ط 2، 2005، ج4: ص 5 – 6.

في نقد سلطة اللغة على العقل

تفاعلا مع مقالة الدكتور عبد الجبار الرفاعي: سلطة الفصاحة والنحو

د. محمد همام[12]

كتب **المفكر العراقي عبد الجبار الرفاعي** مقالة في صحيفة (**الصباح**) العراقية بعنوان: **سلطة الفصاحة والنحو**، بتاريخ الخميس 12(نوفمبر) تشرين الثاني 2020، دعا فيه إلى تجديد اللغة العربية، من حيث معجمها وقواعدها وأنظمتها وطرق تعليمها. واعتبر التجديد في اللغة هو محطة أساسية في تجديد العقل، وتلمس طرق جديدة للتواصل مع العصر العلمي الذي نعيشه. وهي دعوة قديمة بالمناسبة في الدراسات العربية، أكاد أزعم أنها ابتدأت مع **ابن جني الموصلي** (1002-941م)؛ منذ أن ألف مدونته النحوية التي يتضمنها كتاباه: **الخصائص، وسر صناعة الإعراب**. وهو الذي عرف بالتخصص الدقيق في شرح شعر المتنبي. وأتصور بأنه أدرك البون الشاسع بين لغة المتنبي وبين قواعد النحو وسلطة النسق اللغوي، ودوره في إفقار اللغة الشعرية. وجاء بعده كثيرون، في مختلف مراحل تطور الدراسات اللغوية العربية. وساهم في هذه الدعوات التجديدية لغويون ونحاة وبلاغيون وفقهاء وفلاسفة ومتكلمون وعلماء اجتماع، قديما وحديثا. وبرغم ذلك وقع لبس كبير في تلقي مقالة المفكر العراقي عبد الجبار الرفاعي، وفهمت على أنها دعوة للتحلل من اللغة العربية ومن قواعدها ومن أنظمتها، ما اضطره إلى كتابة مقالة توضيحية في الموضوع، بعنوان: **توضيحات على مقالة سلطة الفصاحة والنحو**، نشرت بصحيفة **الصباح**، بتاريخ 19 (نوفمبر) تشرين الثاني 2020. والحقيقة أن من يطلع على المشروع الفكري الواسع لعبد الجبار الرفاعي، ومن يتابع دراساته ومقالاته ومحاضراته سيلحظ بسهولة أن الرجل يكتب بلغة راقية وبعربية فصيحة، ونادرا ما يعترضك خطأ لغوي في متنه. ثم إن دعوة الرفاعي

[12] أكاديمي وباحث مغربي، أستاذ اللسانيات القانونية والحجاج القانوني، ونائب عميد كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، أيت ملول، في جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب: m.houmam@uiz.ac.ma

لتجديد اللغة العربية لا تنفصل عن الإطار العام والفلسفي الذي يؤطر مشروعه الفكري، بنزوعه التنويري والنقدي، كما تجسده مدونته النقدية: **الدين والظمأ الأنطولوجي، والدين والاغتراب الميتافيزيقي، وإنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، ومؤلفات كثيرة، و72عددا مرجعيا متخصصا في فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد، من أعداد مجلة قضايا إسلامية معاصرة التي يديرها منذ 23 سنة ولم تتوقف.**

في هذا السياق ارتأيت التفاعل مع ما كتبه أستاذنا الرفاعي بخصوص تجديد اللغة العربية، من خلال دعم علمي ومنهجي لمقولته، في بعض جوانبها، من خلال أطروحة المفكر المغربي **محمد عابد الجابري** في التجديد اللغوي، وفي دعوته إلى تجاوز سلطة الأعرابي الذي صنع العالم العربي، وهو موضوع شيق وجذاب لكن تتخلله ألغام معرفية ومنهجية كثيرة، يحتاج بحثه إلى دربة وإلى إطلاع واسع وإلى شجاعة فكرية، من دون أن ينقص ذلك من قيمة لغتنا ومن قدرتها على التجدد والتوليد الذاتيين والموضوعيين، وهو صلب دعوة أستاذنا **عبد الجبار الرفاعي**.

يبرر الجابري، رحمه الله، الاهتمام باللغة العربية في مشروعه الفلسفي، والقائم على النقد، من منطلق أن **العربي يحب لغته حد التقديس**، كما يستمد قوته من سلطتها عليه. وهو القادر على التعبير بها بأسلوب بياني راق ورفيع. وغير العرب، بنظره، أعاجم؛ لا يفصحون ولا يبينون. (تنظر المدونة النقدية للمرحوم الجابري: **نقد العقل العربي،** خصوصا الكتاب الأول: **تكوين العقل العربي**.)

فالتعبير باللغة العربية، هو تعبير عن إنسانية العربي؛ إذ بالفصاحة والبلاغة تتحدد ماهيته، وليس بالعقل! هذا من الجانب السيكولوجي الذاتي، أما من الجانب الحضاري، فيرى الجابري أن اللغة والدين هما أهم ما قدمه العربي للحضارة الإنسانية التي أصبحت حضارة إسلامية، قبل أن تحدث تحولات أخرى. فالدين جاء في كتاب عربي مبين، وجعل **علماء أصول الفقه**، وهم **المنظرون المنهجيون والمعرفيون للعقل المسلم**، اللغة العربية جزءا من ماهية الدين. لذلك أضحت هذه اللغة أساس الجدل المذهبي والكلامي والفقهي، بما تتوفر عليه من **"فائض" في الألفاظ**، وبما يتوفر عليه اللفظ العربي من **"فائض" في المعنى**،

وبما يميز التركيب اللغوي العربي من تنوع. كما وجدت الخلافات السياسية والاجتماعية التي وقعت في بداية تشكل دولة الاسلام، بعد وفاة الرسول (ص)، أرضية خصبة في اللغة العربية، بمطاوعتها وانفتاحها، بما يسند الرأي ويوفر له غطاء من البلاغة والاستدلال والدعم. ولا تقف أهمية اللغة العربية عند هذا الحد، بل كان العمل اللغوي أول عمل علمي منظم مارسه العقل العربي، بنظرة الجابري؛ أي "**جمع اللغة وتقعيدها**." هذا المجهود العلمي هو الذي أفرز "**علم اللغة وعلم النحو**." وتحول هذان العلمان إلى "**باراديغم**" **(نموذج معرفي)**، للعمل العلمي اللاحق؛ أي الإنتاج العلمي وفق منهجية اللغويين والنحاة، من خلال مفاهيمهم وآلياتهم الذهنية، والتي أصبحت "أصولا" في النظر والمنهج، لتأسيس العلوم الإسلامية الأخرى، كعلوم الدين.

لذلك كله، تصبح اللغة العربية، مدخلا أساسيا في فهم العقل العربي، والذهنية العربية، بل والدين، والإنسان العربي، والواقع العربي. يدعم هذا، بنظر الجابري، ما تؤكده الدراسات المعرفية واللسانية الحديثة، من أن اللغة تساهم، بشكل أساس، في "تحديد نظرة الإنسان إلى الكون، وتصوره له ككل وكأجزاء." لذلك كان للغة العربية أثر كبير على العقل العربي، بل أثر خطير، خصوصا وأنها بقيت الوحيدة تقريبا، من بين اللغات العالمية الحية، محافظة على منظومتها، من حيث الكلمات والنحو والتركيب، منذ عصر التدوين. كما ظلت اللغة العربية إلى اليوم تجر معها تراث عصر التدوين ومفرداته. ومن خلال هذه الزاوية (اللغة العربية) تحددت أسس التفكير العلمي وأدواته، بنظر الجابري، في الثقافة العربية، فهي بذلك "محدد حاسم" للعقل العربي في بنيته ونشاطه.

ودعم الجابري، رحمه الله، هذه الأطروحة باجتهادات الفيلسوف اللساني الألماني **هردر Herder** (1744 – 1803)، والذي يلح على دور اللغة في تشكيل نظرة الإنسان إلى الكون؛ وبذلك تصبح اللغة ليست مجرد أداة الفكر، بل القالب الذي يتشكل فيه الفكر. لذلك ربط هردر بين خصائص اللغة وخصائص الأمة التي تتكلمها، وخلص إلى أن "**كل أمة تتكلم كما تفكر وتفكر كما تتكلم**" بل إن اللغة، في هذه الحالة، هي خزان تجارب الأمة بصوابها وخطئها، وتألقها وانحطاطها، تنقله الى الأجيال. وعندها تصبح أخطاء الأمة

وانحطاطها من التراث الذي تنقله اللغة إلى الأجيال اللاحقة. بل تساهم تلك الأخطاء والانحطاطات في تحديد نظرة تلك الأجيال إلى الكون وإلى متعلقاته من خير وحق وجمال وعلم وواقع ... ولم يخف الجابري تضجره المعرفي من نتائج أطروحة هردر التي تقود إلى نزوع قومي مغلق، يعطي للقيم المجردة العليا بعدا قوميا، لارتباطها باللغة القومية، ولارتباط هردر، نفسه، بظروف ألمانيا في القرن التاسع عشر لا يمكن تعميمها. وتبقى اللغة، وفق أطروحة الجابري، القالب الذي تفصل على أساسه المعرفة، كما يفصل الخياط الثوب؛ فاللغة ترسم الحدود لكل معرفة بشرية.

وهو نفسه ما أكده الباحث اللغوي والإثنولوجي إدوارد سابير(1939-1884) E. Sapir، أحد المراجع المهمة في أطروحة الجابري؛ إذ توصل إلى أن أية جماعة تفكر داخل لغتها التي تتكلم بها، هذه اللغة هي التي تنظم تجربتها، بل وتصنع عالمها وواقعها الاجتماعي؛ وهو الإطار نفسه لأبحاث هردر وهمبولد؛ أي أبحاث القرن الثامن عشر والتاسع عشر وحتى العشرين؛ والتي لا تخرج عن أطروحة أن اللغة التي تحدد قدرتنا على الكلام هي نفسها التي تحدد قدرتنا على التفكير. وعليه، فبقدر غنى معجمنا بقدر غنى رؤيتنا، وبقدر فقره بقدر محدودية رؤيتنا وفقرها؛ فاللغة لا تعكس الظروف الطبيعية فحسب، بل تحمل معها هذا الانعكاس نفسه لتنشره على أمكنة وأزمنة مختلفة، وتكون حاسمة في تأطير نظرة أصحابها إلى الأشياء؛ لذلك، يرى الجابري أن قاموس (**لسان العرب**) وهو الأضخم في اللغة العربية والحاوي لحوالي ثمانين ألف مادة، لا ينقل لنا، على ضخامته هذه، أسماء الأشياء الطبيعية والصناعية، ولا المفاهيم النظرية وأنواع المصطلحات التي عرفها عصره، أي القرنين السابع والثامن للهجرة. فمادة هذا القاموس الضخم لا تخرج عن مفردات وحياة ذلك (**الأعرابي**) القح، الذي لم (**يتعكر**) صفو لسانه، ولم يخالط أهل المدن والحضر. لذلك كان ذلك (**الأعرابي**) بطل عصر التدوين. وهو الشاهد في اللغة، ويضع نفسه فوق القواعد اللغوية والأنظمة التعبيرية. فارتهان قاموس ضخم من حجم (**لسان العرب**)، لمفردات "**خشونة البادية**"، سد الطريق إليه أمام كلمات وتعابير ومفاهيم فلسفية ومصطلحات علمية، وأخلاقية، لا يراها الإطار المرجعي لعصر التدوين، وهو (الأعرابي)، صالحة لتدرج ضمنه، وهو الذي يضم لغة (**الأعراب الأقحاح**)! فوجب تركها وإهمالها.

ومازال هذا المبدأ المرجعي يؤطر حتى القواميس المعاصرة، فجاءت فقيرة بل ومشوهة للمعاجم القديمة. فاللفظ العربي الذي يعبر عن **"صفاء الهوية العربية"** وعن أصالتها، هو الذي اعترف له عصر التدوين بذلك؛ أي اللفظ الذي تكلم به (**الأعرابي**). وجمد هذا المعيار اللغة العربية وحنطها، فلم تساير الحياة الاجتماعية المتطورة والمتدفقة. فصنعت هذه الحياة لغتها، أو قل انتقمت من الفصحى بـ (**الدارجة**) والتي أضحت أغنى كثيرا من اللغة الفصيحة، مما أحدث تمزقا رهيبا في عقل العربي وفي وجدانه؛ إذ يتوفر على لغة عربية للكتابة والتفكير على درجة عالية من الرقي، من حيث آلياتها الداخلية، لكنها لا تسعفه للتعبير عن قضايا العصر من حيث المفاهيم والمصطلحات، خصوصا في الجانب العلمي والصناعي والتقني، وبعض الأحيان في الجانب الحضاري والفكري، في المقابل نملك قاموسا غنيا بالمفاهيم والمصطلحات التي عبر بها قدماء العرب عن قضاياهم أو القضايا المنقولة إليهم، مما يطرح سؤال التجديد اللغوي بإلحاح اليوم!

لذلك تمدنا (**الدارجة**) بألفاظ ومصطلحات نعبر بها في مجال الأشياء الحضارية والتقنية، وفي غالبها مقتبس من لغات أجنبية أخرى مع بعض التكسير و(**التحوير**)؛ إلا أن هذه الألفاظ العامية لا تتيح لنا فرصة التعامل بها فكريا؛ إذ رغم غنى (**الدارجة**) من هذه الناحية، فهي لا توفر لنا الأدوات الضرورية للتفكير، إذ ليست لغة ثقافة وفكر. من هنا نجد أنفسنا أمام معادلة متناقضة: فصحى غنية داخليا، وفقيرة ظاهريا، و(**الدارجة**) فقيرة فكريا وداخليا، وغنية ظاهريا. لذلك يجد المثقف والطالب والأستاذ والباحث نفسه، بصفة عامة، يعيش عالمين في الوقت ذاته، وجدانيا وعلميا، لكل عالم لغته الخاصة به. أما غير هؤلاء، أي غير المتعلم، فهو مسجون في (**دارجة**) ويتعامل مع أشياء لا يسميها أصلا، وإذا سماها فبألفاظ لغات أخرى أجنبية، محورة، تترك أثرا عميقا في عقله وفي بنيته الفكرية. وأما الذي يتكلم لغات أجنبية أخرى، فتتعدد عوالمه بتعدد لغاته، ويعيش معذبا داخل (**ثلاثية تصورية**) رهيبة؛ يفكر بلغة أجنبية ويكتب بلغة عربية فصحى، ويتواصل في المجتمع؛ في البيت وفي الشارع، وحتى في المدرسة وفي الجامعة بالدارجة.

وعليه، تبقى المادة اللغوية محددا أساسا لنظرتنا إلى العالم من حيث قوالبها الصرفية والنحوية، وكذا أساليبها البيانية. كانت علوم العربية (**معجزة**) العرب، بنظر الجابري، من حيث العمل الضخم الذي أنجز عصر التدوين، جمعا للغة وتقعيدا لها؛ إذ تم الانتقال بلغة كانت تقوم على **الفطرة** و"**السليقة**" و"**الطبع**"، لغة يصعب تعلمها خارج **فضاء لغوي مثالي**، بمصطلح اللسانيين، يشكله الأعراب والقبائل الذين يتكلمونها، إلى لغة، مضبوطة تتعلم وتكتسب بالطرق نفسها التي يكتسب بها العلم؛ من مبادئ ومقدمات ومنهج صارم.

فلقد نقل العمل الضخم لمدوني العربية، هذه اللغة من مستوى اللاعلم إلى مستوى العلم؛ إذ تم إنشاء علم جديد هو "**علم اللغة العربية**"، أبرز علاماته: جمع المفردات وإحصاؤها، وضبط طرق اشتقاقها وتصريفها، ووضع قواعد تراكيبها واختراع علامات رفع اللبس عن كتابتها... فنشأت لغة جديدة هي (**اللغة العربية الفصحى**). فورثت الأجيال لغة مضبوطة ومقننة وقابلة للتعلم، وقادرة على حمل الثقافة والعلم عبر الأجيال. وقد تميز العمل التدويني والتقعيدي الضخم للغة العربية، بنظر الجابري، بالمنهج الصارم المتبع والذي كان له تأثير كبير على كيان اللغة العربية الداخلي، حتى زاحمت الصنعة والدقة السليقة والفطرة. هذه الصرامة، والتي مثل لها الأستاذ عبدالجبار الرفاعي بالفصاحة والنحو، وأمثلتها كثيرة، هي المسؤولة، إلى حد ما، عن تحجيم اللغة العربية وتضييق قدرتها على التطور والتجدد، ولكنه يبقى منهجا دقيقا وسليما في منطقه الداخلي وفي خطواته. ويمكن التمثيل لهذه الدقة بعمل **الخليل بن أحمد الفراهيدي** في معجمه (**العين**)؛ والذي عبر من خلاله عن عقلية رياضية فذة تناغمت مع حس موسيقي مرهف مكنه من استنباط أوزان الشعر العربي، وتأسيس (**علم العروض**)، مع ابتكار ترتيب حروف الهجاء انطلاقا من حروف الحلق إلى حروف الشفتين، مجسدا الارتباط التاريخي والعلمي والوجداني بين الموسيقى والرياضيات؛ الموسيقى التي كانت فرعا من الرياضيات. فقد وظف الخليل بن أحمد معرفته الموسيقية لاستخلاص القوالب – الخفية واللامرئية التي يصب فيها الشعر العربي، كما وظف تكوينه الرياضي لوضع قوالب نظرية وافتراضية، لها ارتباط بواقع اللغة، ووزع عليها النطق العربي، في إطار (**الإمكان الذهني**)، ولو لم يسعفه (**الإمكان الواقعي**)، إلا عند التحقق والتجريب؛ أي عند الانتقال مما هو صوري إلى ما هو واقعي،

مستثمرا (**نظرية المجموعات**) في الرياضيات في مفرداتها الأولية قبل تطورها مع البحث الرياضي المعاصر.

وعليه، فمن الناحية العلمية الصرف، يرى الجابري أن منهج الخليل يضعنا أمام عمل علمي صارم ومنهجية منطقية وعقلية ورياضية راقية، ولكن من الناحية الواقعية، والواقع شيء والمنطق شيء آخر، فإن ذلك المنطق الصارم يقتل الحياة في الواقع، ويكون مدعاة إلى التحجر والجمود والتوقف عن النمو. فبقدرما كانت تلك المنهجية الصارمة "معجزة" حقا، بقدرما جعلت اللغة العربية (عاجزة) عن النمو والتطور. فقد حول ذلك المنهج الصارم اللغة العربية إلى صناعة تقوم على قوالب ثابتة وصلبة، ولكنها مفتقدة لإمكانية التطور والتجدد.

وإذا تذكرنا دور اللغة في بناء العقل وهيكلة الفكر، أمكننا إدراك خطورة منهج الخليل، ومن أتى بعده، وقد كانوا، تقريبا، عالة عليه، خطورة على العقل العربي؛ منهج ينطلق من الإمكان الذهني، ويتعامل مع الحروف تعاملا رياضيا صرفا، فأصبحت اللغة صنيعة ذهنية وليست معطى واقعيا، بل تحولت المنهجية الصارمة، عند الممارسة، من جمع اللغة الى التماس الشواهد الواقعية للفروض النظرية، فاختلط ما نطقت به العرب مع ما لم تنطق به، وتزايدت شهوة الولع بالغريب، وحل القياس محل السماع، وأصبحت الألفاظ صحيحة لأنها ممكنة وليس لأنها واقعية؛ ممكنة ترد إلى أصل عبر (**آلية القياس**)، وغير واقعية لأن **"الفرع" فرض نظري وليس معطى من معطيات التجربة الاجتماعية**. هذه العملية، أي غلبة الممكن على الواقعي في اللغة، هو الذي ضخم اللغة العربية وجعلها ذات فائض من الألفاظ بالنسبة للمعنى، مما أثر على طريقة تعامل العقل العربي مع اللغةّ ذاتها؛ لغة هي التي صنعته، لغة جمدتها القوالب الرياضية والمنطقية التي اصطنعها الخليل ولم يطورها من أتى بعده، فأصبحت اللغة العربية محصورة الكلمات ومضبوطة التحولات، لغة لا تاريخية.

أكيد أن جمع اللغة العربية وتقعيدها تحكمت فيه الرغبة في محاصرة اللحن الذي تفشى في مجتمع أصبح فيه العرب أقلية، وسبب اللحن اختلاط الحواضر في العراق والشام بين العرب والموالي، فكان ضروريا طلب "**اللغة العربية الصحيحة والفصيحة**"، من الأعراب المحتفظين بفطرتهم وسليقتهم وسلامة نطقهم. كان هذا مبررا لسانيا وعلميا للتوغل في

البوادي وطلب اللغة من "الأعرابي" القح. لكن هذا الأعرابي أصبح المتحكم في العلماء وينفذون مشيئته! وأصبح هذا الأعرابي هو الحكم في الخصومات والخلافات. (ينظر: محمد عيد: الرواية والاستشهاد باللغة). بذلك بدأ يشعر الأعرابي بقيمته وأهميته، فاحترف بيع الكلام، ورحل الأعراب إلى المدن رواة للغة بثمن، خصوصا رواية اللفظ الغريب والموحش والقديم والنادر؛ إذ كلما كان الكلام قديما كان مقبولا ومطلوبا، فأصبح كل قديم علامة على الجودة عكس الحديث. بل كان ينظر إلى حالات التطور الطبيعي الذي تعرفه اللغة العربية، بما هو ضرب من الخطأ والانحراف، فحددوا الاستشهاد زمانيا بمنتصف القرن الثاني الهجري، وألفوا المصنفات في **(لحن العامة)**، وفي **(لحن الخاصة)**.

كل هذا حول اللغة العربية، بنظر الجابري، كما ذكرنا إلى لغة لا تاريخية محصنة ضد التطور والتغيير الذي يقترحه التاريخ؛ فبقيت هي في نحوها، وفي صرفها، وفي معاني ألفاظها وكلماتها، بل وفي طريقة توالدها الذاتي؛ إذ رفعها الخليل، بمنهجه الصارم، والأعرابي بمعياريته المتعالية، فوق التاريخ! ثم إن الاقتصار على الأعراب في جمع اللغة ملأها بخصائصهم الذهنية وخصوصيات معاشهم الطبيعية والحسية لتفكيرهم ورؤاهم، وتسييجها بحدود عالمهم الإدراكي والواقعي المحدود أصلا، وزمانهم الممتد كالصحراء، زمن التكرار والرتابة. لذلك جاء قاموس اللغة العربية فقيرا بالمقارنة مع قاموس القرآن الكريم؛ هذا الأخير الذي همشه جامعو اللغة لصالح لغة الأعرابي! لذلك جاءت قواميس العربية القديمة أقل اتساعا ومرونة وتحضرا من لغة القرآن. وكان النص القرآني دائما أوسع وأخصب من المعاجم، وهي التي بخلت علينا بذكر أسماء الأدوات وأنواع العلاقات الاجتماعية التي عرفها مجتمع مكة والمدينة، وعرفها مجتمع دمشق وبغداد والقاهرة والغرب الإسلامي، وقد كانت مجتمعات حضرية وراقية. وليس غريبا إذن أن نجد من ألف في: **(نحو القرآن)**، وفي: **(بلاغة القرآن)**... بعيدا عن لغة الأعرابي؛ هذه اللغة التي أهدرت الكثافة الدلالية والمنفتحة والمطلقة للفظة القرآنية، هذه اللفظة التي تندرج ضمن **الاستخدام الإلهي للغة في القرآن**، وليس الاستخدام البشري **(الأعرابي)**. (يمكن التوسع في هذه الفكرة الأخيرة ضمن المشروع الفكري للمفكر السوداني المرحوم أبي القاسم حاج حمد، خصوصا في كتابه: **العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة (2004م)**،

و**إبستمولوجيا المعرفة الكونية**، و**منهجية القرآن المعرفية (2004م)**؛ وهذا المشروع مدونة فكرية ونقدية أشرف الدكتور **عبد الجبار الرفاعي** على نشرها ضمن منشورات **مركز دراسات فلسفة الدين، ببغداد، وسلسلة كتاب قضايا إسلامية معاصرة**.)

إن الرغبة في (**تحصين**) اللغة العربية من اللحن، أدى إلى تثبيتها في مرحلة حضارية وتاريخية بدائية وفقيرة، على قاعدة معيارية يتحكم فيها (**أعرابي**) جلف ومنغلق في عالم حسي ومحدود. فورثنا لغة فقيرة حضاريا وغنية بدويا؛ فقر تجسده المترادفات المرتبطة بالاشتقاق الصناعي على منهج الخليل بن أحمد الصارم، وبالسماع من القبائل المختلفة. فأصبحت لغة الأصل والمشتق أوسع من لغة الواقع. لذلك ظلت اللغة العربية تنقل إلينا، في معاجمها، عالما يزداد بعدا عن عالمنا، عالما بدويا نعيشه في أذهاننا وفي خيالنا وفي وجداننا، عالم يتناقض، يوما عن يوم، مع العالم الذي نعيشه، والذي يزداد غنى وتعقيدا، والحل أن نخرج (**الأعرابي**) منا، ونفتح الفرصة للغتنا للتجدد والنمو الذاتي والتطور؛ وهذا هو صلب دعوة أستاذنا الرفاعي ومغزاها.

العربية أم العرب؟ مجتمع المعرفة والفرص الضائعة

تفاعلاً مع مقالتي الدكتور عبد الجبار الرفاعي حول (سلطة الفصاحة والنحو)[13]

د. هلال محمد الجهاد[14]

"يتعين استغلال الفرص العديدة التي يتيحها مجتمع المعرفة لمواجهة التحدي الراهن الذي يفرضه الإفراط المعلوماتي المعاصر، وهو تحد لغوي في المقام الأول، وتفجير الطاقات الكامنة في اللغة العربية". تقرير التنمية الإنسانية العربية، UNPD، 2003، ص 121.

هذا التقرير الذي لم تنتبه السلطات صاحبة القرار في البلدان العربية إلى خطورته ومصيريته في حينه، انتهى إلى هذه النتيجة وهو يدق ناقوس الخطر إلى المصير الذي ينتظر العربية والعرب في عصر الثورة المعلوماتية. بعد سبع عشرة سنة، تبدو هذه الخلاصة متفائلة أكثر من اللازم حين تتحدث عن "تفجير الطاقات الكامنة للغة العربية" لأنها لم تذكر ماهية هذه الطاقات ولا كيفية "تفجيرها"، والأهم هو أنها لم تحدد من سيقوم بالتفجير. هذا التفاؤل يندرج ضمن نظرة العرب المثالية إلى لغتهم، التي تضفي عليها قدسية متوهمة، تجعلها أشرف اللغات وأجملها وأفصحها، بل يشتط البعض في المثالية ليقول إنها ستكون لغة العالم كله في النهاية.

على الطرف النقيض، ومنذ أكثر من قرن، ظهرت الطروحات التي تكشف عن عجز اللغة العربية عن اللحاق بالتطور المعرفي والعلمي في القرن العشرين، وأنها ليست أكثر من لغة

---

[13] المقالة الأولى للدكتور عبد الجبار الرفاعي منشورة في جريدة الصباح في الخميس بتاريخ 12 تشرين الثاني، 2020، والمقالة الثانية حول الموضوع منشورة في جريدة الصباح في الخميس بتاريخ 19 تشرين ثاني 2020.

[14] أستاذ الأدب العربي في جامعة الحمدانية في العراق.

دينية- شعرية- خطابية، وأن عليها لذلك التراجع إلى مكانيها الطبيعيين (المسجد والمنبر)، فظهرت دعوات التغريب والفرعنة والأشورة والفينقة إلى آخره.

كلا المنظورين يعكس تطرفًا في النظرة إلى اللغة العربية؛ فالطرف الأول يجعلها لغة مثالية متعالية تعالي القرآن الكريم والحديث وغيرهما من النصوص الدينية المؤسسة لمنظومة الفكر الديني العربي الإسلامي، وبالتالي تتحول إلى لغة منفصلة عن الواقع متعالية حتى على متكلميها، والطرف الثاني يحمّل العربية في ذاتها مسؤولية العجز عن الإنتاج المعرفي ما دام أعرابي محمد عابد الجابري، البدوي الشاعر الخطيب يكمن في أعماقها. لكن هذين التطرفين يعكسان أيضًا أن العربية كانت وما زالت تواجه أزمة مصيرية متفاقمة. لذلك ظهر طرح آخر حاول أن يقدم حلاًّ ما، فذهب إلى الدعوة إلى تخليص اللغة العربية من أعبائها التقليدية وتسهيل قواعدها الكثيرة (لم يذكر أحد كيف سيتم ذلك)، وتفعيلها في متابعة التطورات العلمية والمعرفية عن طريق تعريب العلوم والمعارف الحديثة. لكن هذا الحل - رغم الجهود الكبيرة والمنجزات المتحققة- انتهى إلى التراجع والانكفاء كما يبدو، أمام عجزه عن متابعة التسونامي المعرفي ولاسيما في عصر الثورة المعلوماتية.

لنواجه الواقع: اللغة –أية لغة- لا توجد بمعزل عن متكلميها، وبالتالي قيمتها الحقيقية تأتي من قيمتها في اقتصاديات المعرفة. يحيلنا هذا إلى المبحث الرئيس في فلسفة اللغة المتمثل بعلاقة اللغة بالفكر التي درسها وأكد أهميتها الحاسمة بعض علماء اللغة مثل يوهان هيردر وفيلهلم فون همبولدت وإدوارد سابير وتوشيهيكو إيزوتسو وغيرهم، من أن اللغة تؤثر بعمق في رؤية متكلميها للعالم ومفهمته وبالتالي في تفكيرهم. لكنها من جهة أخرى، إيجابية، هذه العلاقة بين اللغة والفكر ذات أهمية حاسمة في الإبداع الفكري والمعرفي، لأن اللغة حسب مفهوم تشومسكي قدرة متأصلة تتيح للإنسان اداء ما لانهاية له من الجمل اللغوية للتعبير عن أفكاره. هذه الفكرة اهتم بها الظاهراتيون، بدءًا بإدموند هوسرل ثم مارتن هايدجر وجعلوها أساس تطوير اللغة والفكر والتعبير لكن بالمعنى الإبداعي: التعبير يعني الوعي باللغة وممكناتها، والإنسان يعبرّ عندما يجعل اللغة تقول ما لم تكن قالته سابقًا. (موريس ميرلوبونتي، تقريظ الفلسفة، 1983، ص 74- 75).

المشكلة إذن ليست في قواعد النحو العربي وشواذها، ولا في أعرابي الجابري الكامن فيها، ولا في قدسيتها المتوهمة، بل في وعي متكلميها وإرادة المعرفة لديهم. وإذا كانت أزمة اللغة العربية في القرن العشرين عبرت عن نفسها في المراهنة على قدرتها على استيعاب المستجدات المعرفية والتعبير عنها من عدمها، فقد فرض القرن الحادي والعشرين تحديًا جديدًا أكثر خطورة وجدية بكثير، هو قدرتها على المشاركة في إنتاج المعرفة في عصر الثورة المعلوماتية.

"لحاقًا أو انسحاقًا"، هذا هو النداء الذي أطلقه نبيل علي خبير المعلوماتية العربي قبل حوالي ثلاثين سنة، لينبه العرب إلى طبيعة الثورة المعلوماتية المقبلة التي ستكتسح المعرفة التقليدية وتدخل البشر إلى عصر جديد لا حدود لإمكاناته ولا رادّ لتحدياته وضغوطه التي

سيفرضها على اللغات المحلية. يبدو أن الرجل مات كمدًا وهو يرى تبدد ندائه في مؤلفاته الأربعة عن العرب وعصر المعلومات بين عامي 1993- 2009، في عراء الإصرار العربي على العزلة والإحجام عن المشاركة الفاعلة في الثورة المعرفية العالمية مما شهدنا مظاهر عديدة له لاحقًا، مثل التراجع الحاد في مؤشرات التنمية المعرفية في العالم العربي على كل المستويات (التعليم الأساسي والعالي والبحث العلمي والنتاج الثقافي)، والأهم هو التأثير المعرفي العربي في العالم. ورغم أن نبيل علي حاول تشخيص مظاهر الأزمة المعرفية العربية من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلا أنه أولى اللغة اهتمامًا خاصًا بوصفها المكون الأهم في نشوء الأزمة، وبداية الحل الجذري لها. لكن الظاهر أن الأزمة تتفاقم والحل ما زال بعيدًا.

دعمًا لنداء نبيل علي، شاركت في مؤتمر المنظمة العربية للعلوم والتكنولوجيا (دمشق، آذار، 2006) ببحث عنوانه (الطاقة المعرفية العظمى) بينت فيه أن أية محاولة لتوطين التكنولوجيا في العالم العربي وتفعيلها تبدأ وتنتهي باللغة العربية نفسها، وكانت إحدى توصيات البحث تأسيس المجمع العربي الإسلامي لبحوث اللغة وتكنلوجيا المعلومات، يكون من أولوياته إطلاق مشروع حوسبة اللغة العربية بوصفها قائدة لغات العالم الإسلامي. لكنه كان نداء آخر ضاع في واد التجاهل وعدم الوعي بالموجة الكاسحة التي بدأت تغرق كل شيء.

لنواجه الواقع مرة أخرى: تمثل شبكة المعلومات العالمية المظهر الأبرز للثورة المعلوماتية المعاصرة، وتتسابق الشعوب على احتلال أكبر مساحة ممكنة من هذا العالم الافتراضي عن طريق إنتاج المعرفة وتسويقها وبالتالي فرض الهيمنة اللغوية بوصفها أداة للتعبير عن هذا المحتوى. والحقيقة أن ما نشهده عبارة عن ساحة معركة كونية يستميت فيها الجميع من أجل الحفاظ على موطئ قدم على الأقل دائم وقابل للتطوير. قياس نسبة المحتوى العالمي على الإنترنت وتصنيفه لغويًّا وموضوعيًّا أمر يشغل منظمات وجهات عديدة في العالم منذ ما لا يقل عن خمسة عشر عامًا، ذلك لأن هذا المحتوى يعكس تحولاً هائلاً في نمط السلوك المعرفي الإنساني يقارن بالثورة الصناعية التي غيرت تاريخ البشر جذريًّا، وخلال هذه السنين لوحظ أن منتجي المعرفة في العالم المعاصر يتنافسون على مضاعفة نسبة حصتهم من محتوى الإبداعي.

أين العرب والعربية من ذلك؟

مع أن عدد العرب يزيد على 400 مليون حاليًّا، والمتكلمون بالعربية في العالم يزيدون هذا الرقم كثيرًا، فإن نسبة المحتوى العربي الرقمي على شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) يتراوح حول نسبة 3%،[15] وهذه النسبة على ضآلتها لا تعني أن المحتوى الرقمي العربي يعبر عن اهتمام العرب بالثقافة والبحث العلمي والترجمة والتحليلات النقدية والنصوص الأدبية التي عادة ما تشكل حوالي نصف ما ينتجه العالم المتقدم من المحتويات

[15] https://mawdoo3.com/arcontent/

الرقمية، بل يعكس ظاهرة تسود الواقع العربي عمومًا وهي التبعية والتكرار، فنسبة 80% من هذا المحتوى هي عبارة عن (نسخ ولصق وإعادة نشر ومشاركة)، أي أن النسبة ستنخفض إلى 6. 0%. وإذا أضفنا إلى ذلك الكم الهائل من الصحافة الإلكترونية الصفراء والبروباغندا الإعلامية، والجدل حول قضايا سياسية واجتماعية طائفية عقيمة وتعليقات المجاملة والمتابعة على منصات تويتر وفيسبوك، فسينخفض المحتوى العربي الرقمي الجيد الأصيل إلى أقل من ذلك بكثير.

تكشف موسوعة ويكيبيديا (بوصفها الموقع الأبرز لوجود المحتوى الرقمي العربي الجيد نسبيًّا) عن نسبة مساهمة العرب في النتاج الفكري بلغتهم، حيث تضعنا المقارنة أما حقائق أقل ما يقال عنها أنها صادمة: في الويكيبيديا هناك (2,567,509) مقالة بالإنكليزية، مقابل (77,444) بالعربية، ومع ذلك هناك شعوب عددها أقل من العرب بكثير لكن لديها مقالات أكثر من المقالات العربية (تسلسل المقالات العربية 27 من 40 لغة، وتسبقها مثلاً الأوكرانية (127,309 مقالة) والهنغارية (106,219) والتشيكية (107,973) مقالة) والسلوفاكية (101,135) والفنلندية (179,520) وحتى الكتالانية التي هي مجرد لغة محلية إسبانية (133,214 مقالة).[16] وكل هذه الشعوب لا يبلغ تعدادها تعداد متكلمي العربية في بلد مثل العراق أو السعودية أو الجزائر مثلاً.

تتأصل هذه المشكلة الأساسية مرة أخرى، في علاقة اللغة بالفكر التي تكلم عنها عدد من اللسانيين المحدثين، وينبني على ذلك أن أية لغة تتقدم وتفرض نفسها بمقدار ما ينتجه متكلموها من منتجات فكرية نظرية وتطبيقية، وإذا أخذنا الإسهام في ويكيبيديا معيارًا، فهل يعقل أن ينتج متكلمو الكتالانية الذين لا يزيد عددهم عن أحد عشر مليونًا، مقالات علمية ضعف مما ينتجه العرب مجتمعين؟

هذه الإحصائيات تكشف عن أن العرب أنفسهم يفتقرون إلى إرادة المعرفة والمشاركة الفاعلة في تسويق لغتهم. ولا يرجع السبب في ذلك إلى رؤيتهم للعالم التي أسهمت لغتهم نفسها في مفهمته وبالتالي تأسيس علاقة متكلميها به، ولا إلى نحوها وفصاحتها وبلاغتها الرنانة، بل إلى معوقات الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي العربي ومحدداته التي تنعكس على سوق المعرفة العربي، وتحد من طلب العرب على المعرفة، والامثلة على ذلك كثيرة، منها تردي التعليم الأساسي والجامعي وتحول الأساتذة والباحثين إلى مجرد موظفين قتل الروتين فيهم أية رغبة في التفكير والإبداع، والتراجع المستمر للإنفاق الحكومي العربي على البحث العلمي، والعجز عن استثمار كفاءات خريجي الجامعات وإلقائهم إلى هوة البطالة، والإهمال المتعمد للخطط التنموية الراهنة والمستقبلية، فضلاً عن العجز عن حوسبة اللغة العربية وتوظيفها في سوق المعرفة الرقمية بكفاءة.

---

[16] https://en.wikipedia.org/wiki/Wikipedia:Multilingual_statistics
هذه الإحصائيات مأخوذة من موقع ويكيبيديا نفسه وفيه تفاصيل.

هناك عامل آخر يسهم بقوة في تفاقم أزمة العربي في عالم اليوم، فمع ما فرضته العولمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمعلوماتية من انفتاح اكتسح الحدود التقليدية، كان رد الفعل العربي يميل إلى العزلة أكثر فأكثر، بذريعة الخوف على الثوابت الدينية والقيم والأخلاقيات المثالية التي يتصور أنه يمتلكها، ولكن النزوع إلى التبرير أفرز نفورًا –على الأقل في الخطاب المعلن- من كل ما يحدث في العالم وتفسيره على أنه محاولة من العالم كله لتهديم آخر المعاقل التي يتحصن بها وهو اللغة العربية نفسها. وفي هذا السياق تأتي التوجهات المحزنة للمنادين بـ "حماية اللغة العربية" بذريعة الخوف عليها من الضياع. هذا الشعور المركّب بالاضطهاد المفضي إلى مزيد من العزلة جعل الواقع العربي يبدو زقاقًا موحشًا في القرية العالمية التي أنشأها عصر المعلومات.

فلو أخذنا واقع الترجمة باعتبارها قناة التفاعل بين الثقافات المتنوعة في العالم وسوقًا لتبادل الإنتاج المعرفي، لوجدنا فقرًا مدقعًا في الإنجاز الترجمي العربي. فعدد ما ينشر من الكتب والمقالات المترجمة في العالم العربي سنويًّا يساوي ما تترجمه ليتوانيا التي يبلغ عدد سكانها أربعة ملايين نسمة. ومجموع ما ترجم إلى العربية من عصر المأمون إلى الآن تقديرًا، يساوي ما تترجمه إسبانيا في سنة واحدة. ومعدل الكتب المترجمة 4 فقط لكل مليون عربي، بينما يصل المعدل إلى مئة ضعف هذا في إسرائيل، وما يقرب من أربعمئة وخمسين كتابًا لكل مليون نسمة في هنغاريا مثلاً. ناهيك عن اليابان التي تترجم إلى لغتها ما يزيد على ثلاثين مليون صفحة كل سنة (تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003، ص. 67). بينما يعتمد سوق الترجمة العربي إما على مؤسسات الوجاهة لدى الدول العربية المترفة، أو محاولات فردية لمترجمين تبتزهم دور النشر ولا تدعمهم إلا بالفتات. بينما بعض النقاط المضيئة في هذا الزقاق الموحش (مثل دار المأمون في العراق والمنظمة العربية للترجمة في لبنان) أغلقت أبوابها وانطفأت بعد أن قطعت شوطًا معرفيًّا متقدمًا، إما للتغيرات السياسية العنيفة أو شحة التمويل.

هذه المقارنة تعكس فرقًا جوهريًّا بين الشعوب الحية التي تتعامل مع عصر المعلومات بواقعية وتحاول أن تنافس في سوقه دون خوف على ثوابت أو مثاليات، وبين شعوب أخرى ترفض الاستجابة للواقع الذي أظهر نمطًا جديدًا من الإمبراطوريات والدول هي الإمبراطوريات والدول اللغوية المسلحة بعتاد معرفي متطور كل يوم، وينفتح في الوقت نفسه على ما يستجد لحظة بلحظة.

والحل؟

كثيرة هي المؤتمرات الخاصة باللغة العربية التي تنعقد هنا وهناك وتطرح أوجهًا متنوعة لأزمتها ثم تخرج بتوصيات وحلول نظرية سطحية لا تنفذ إلى جوهر المشكلات والمعوقات والمحددات، والأهم أنها لا تملك سلطة اتخاذ القرار ولا تنفيذه. فتتحول إلى حفلات علاقات عامة باذخة غايتها الترويج الإعلامي لا غير. والمؤسي في الأمر كله أن الأكاديميين العرب من ذوي الأسماء الكبيرة والصغيرة يتسابقون للمشاركة في حفلات الزيف المترفة هذه لعلهم

يحظون بشيء من فتات سلطات سياسية وثقافية ليست معنية بالأزمات الطاحنة ومنها أزمة اللغة، التي تسحق العربي المعاصر، بل هي السبب الأول لها.

لا أزعم – ولا يستطيع غيري أن يزعم- أنني أستطيع تقديم حل من أي نوع لما تعانيه لغتنا بسببنا نحن، وبسبب قصورنا عن فهم دورنا في العالم المعلوماتي وفقر بضاعتنا في سوق المعرفة، فعلى امتداد الثلاثين سنة الماضية، كان أكثر من فرصة متاحة لنا لفعل شيء ما، لكن الآن هناك شك كبير في أن تطرق فرصة أخرى أبوابنا المغلقة. لنتذكر فقط أن القضية التي نطمح إليها ليست قضية تسهيل النحو، ولا حل مشاكل الإملاء العربي المعقدة مثل كتابة الهمزة، ولا قل ولا تقل، ولا الخلاص من ركام الطنطنة البلاغية علمًا وتعبيرًا، فليس لأحد في ذاته مهما كانت سلطته أن يصدر قرارًا بذلك ليطبق على الفور، وإنما القضية هي إن كان لدينا نحن العرب الشجاعة لتغيير النظرة إلى لغتنا، من كونها مقدسة ذات علوم (نضجت واحترقت) إلى كونها مجرد أداة للتعبير عن الفكر وتنميته وتحفيزه على الإبداع والتفكير فيما لم يفكر فيه بعد، مهما كان ذلك غريبًا أو صادمًا أو مخلخلاً للثوابت المعتادة الراسخة. ومرة أخرى؛ اللغة العربية مثل غيرها من اللغات، ليست كيانًا مجردًا قائمًا بذاته، بل هي وسيلة إنتاج، وهي لذلك تتطور وتؤثر وتنتشر نتيجة عوامل ذاتية وموضوعية أهمها فعل التفكير الذي يوظفها للتعبير عن منجزات المعرفة. بكلمة أخرى إن قيمة أية لغة تأتي من قدرتها على إنتاج المعرفة في عالم يتسابق إلى فرض الهيمنة اللغوية مصاحبةً للهيمنة المعرفية. وفي هذا السياق لا يبدو أن متكلمي اللغة العربية يعون حقًّا ما الذي يجري في العالم اليوم. ولعل هذه المقالة ربما تساعد قليلاً في الكشف عن شيء يقود إلى إدراك الأزمة والوعي بها بشكل واقعي بعيدًا عن التطرف في المثالية أو التعجيز أو العزلة.

يضاف إلى ذلك عاملان جوهريان سيكونان كفيلين بإعادة الحياة إلى لغتنا:

الأول: هو أن نكف عن خوفنا المزمن من الفلسفة وكرهنا لها، والسعي إلى تشكيل رؤية فلسفية عربية تتعمق في دراسة علاقة اللغة بالوعي الذي ينتجها وبالواقع الذي تؤثر فيه؛ فكل المنجزات في ميدان علم اللغة مثلاً تستند إلى أساس صلب من التفكير الفلسفي والعتاد المصطلحي الذي يحدد المفاهيم الأساسية ويجددها، ودون ذلك يصبح أي كلام في اللغة هشيم تذروه رياح الواقع العنيف.

العامل الثاني: هو المنهج؛ ان على العرب التفكير في إنجاز مشروع التحليل المنهجي الشامل للعلاقة بين منظومة اللغة ومنظومة المجتمع ومنظومة الثقافة. المنهج هو المصباح الذي سيضيء الجوانب المعتمة من أنفسنا وواقعنا ودورنا في عالم المعلوماتية ويكشفها لنا لكي نفهمها ونفهم فقرها وفقر رصيدنا من التفكير المنهجي المنظم وفقر رؤيتنا الفلسفية، وبالتالي ضعف إرادة المعرفة العربية. هذا الذي سيطور لغتنا حقًّا ويغنيها ويعيدها إلى الحياة. **وقديمًا قيل: الفقر لا يصنع الثورة؛ الوعي بالفقر هو الذي يصنع الثورة.**

مركز أفكار للدراسات والأبحاث

Afkaar Center for Studies and Research

https:// Afkaar.Center

afkaarcenter@gmail.com

twitter.com/AfkaarCenter

facebook.com/AfkaarCenter

ALL RESERVED©2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020